ما العمارة ؟

العمارة التي نهدف الى البحث في ماهيتها، هي ليست وصفا او مكونا في ظاهرة، بل هي بذاتها الظاهرة التي نطلق عليها ليس الوصف، بل الاسم الكلي (العمارة). فهي الابنية التي يستخدمها الانسان مأوى له.

العمارة (الظاهرة) التي نريد البحث في ماهيتها، والتي تحاول المعرفة دائما ان تبلغ تلك الماهية وتقدم وصفا لها وتعبيرا عنها، انها بقدر ماتكون ماهية مفهومية وتجريدية للعمارة ذاتها،

فانها تبقى متعلقة بالوجود الموضوعي للظاهرة، وهو ما يصعب الوصول اليه، ونعجز عن ان نعرفه على حقيقته الذاتية المطلقة.

حيث ان قدرة الانسان على معرفة الاشياء، هي قدرة تجهد نفسها ولكن اقصى مايمكن ان تبلغه وتقدمه، هو صورة عن الاشياء وعن وجودها الموضوعي وليس صورة له.

وان الانسان ومن خلال تاريخ وتواصل محاولات تعرفه وتعريفه للعمارة، انما يبنى الوجود المعرفي او المفهومي للعمارة. والذي هو يمثل وجودا اخر للعمارة هو غير وجودها الموضوعي، على الرغم من انه يؤكد قبل كل شئ قيام الوجود الموضوعي للعمارة والذي لولاه لما كان لنا ان نبني لها وجودا معرفيا.

غير ان العمارة التي تكون قائمة وموجودة وواحدة،تتعرض الى التعدد في المفاهيم عنها وفي محاولات معرفتها، لان المعرفة التي تقوم على عوامل ثلاثة، هي الانسان واللغة والاشياء، تتدخل كثيرا في الانحراف بالصورة التي تبنيها للعمارة مقارنة بصورتها المحتملة في وجودها الموضوعي.

ان الانسان حين يحاول معرفة الاشياء فانه يتدخل فيها ويؤثر عليها، فتتغير تلك الاشياء في محض محاولة معرفتها،

كما ان اللغة التي نصف بها ماندركه من الاشياء، هي اداة معرفية ملتبسة وتحتمل الكثير من الانحراف والغموض،وفي احيان تتحول وتتغير الافكار التي يمتلكها الانسان عن الاشياء، حالما يستخدم اللغة في وصفها والتعبير عنها.

كما ان وصف الاشياء والتعبير عن الافكار يتعرض الى تحول اخر عندما يصل في صورة نص لغوي الى المتلقي، فيقوم بتفسيره وتأويله مع شئ محتمل من الانحراف ايضا.

ونحن في الواقع مرغمون على ان نتبادل مع الاخرين ماندركه من العمارة وماندركه عنها، لان غاية المعرفة هي في تقديم ماهو ذا قيمة واضـــافة الى جانب مايعتقده الاخرون، من اجل توافق العقول في ماتعرفه وتعتقده عن العمارة.

كما ان التعدد في العارفين وفي اســـاليبهم ومناهجهم في المعرفة قد يقترف التعدد والاختلاف في المفاهيم التي يقدمونها حول العمارة، ويصبح من نتائج تعدد الانسان، ان تتعدد وتختلف مفاهيمه عن العمارة، على الرغم من كون العمارة في وجودها الموضوعي واحدة.

كيف لنا ان اذن ان نصل الى حقيقة العمارة الموضوعية ونقوم بالكشف عنها ؟

ماهية العمارة هي مفهوم نبنيه عن العمارة، وليست موضوعا نكتشفه اونكشف عنه فيها. وتكون ماهية العمارة بذلك موضوعا للخلق وليس للاكتشاف.

وان مانصـــل الي خلقه وبناءه من مفهوم للعمارة ولماهيتها، انما ينال قيمته من خلال اشـــتغاله وماينتج عنه من اثار اقناع ويقين معرفي.

ان الماهية تكون قائمة في الوجود المعرفي للعمارة، كما انجزه ويديم الانســـان تواصـــل انجازه، وان ماهية العمارة انما نبلغها من خلال التوصل الى ما هو اساسي ومميز من خصائص ومقومات ظاهرة العمارة، والتي هي خصـــائص تتصـــف بدوام وثبات حضـــورها في كل تغيرات العمارة وتحولاتها، وفي كل تعدد افرادها المختلفة.

كما ان ثمة مدخل اخر لماهية العمارة في ما نعتبره مكونا فيها يهمنا ويحقق اهدافنا وطموحاتنا، وان هذين المفهومين للماهية يفســـران هذا التعدد والتغير الذي يتصـــف به ما نعتقده عن العمارة، حيث على الرغم من ثقتنا بقيمة ما نفهمه من الماهية، واهميته في التعامل مع الاشياء وانتاجها، فان مفهومنا عن الماهية يتعرض الى التحول والتغير بسبب واقع اختلاف، او مايقع من تغير في افكارنا ومعتقداتنا.

نحن نبحث عن ماهية العمارة، من خلال ابعادها الثابتة والمتحولة، ويكون في اساس ابعادها الثابتة بعدها الوظيفي،

حيث ان وظيفة العمارة هي التي تميزها عن سواها من الظواهر، والتي تمثل ماتقوم به العمارة وما تقدمه للانسان،مما لا يقدمه اي شئ اخر وهي وظيفة (المأوى).

فالعمارة مأوى الانســـان على الدوام، وان الحاجة الى المأوى هي اســـاس كل مبنى تم انشـــاءه في الماضي او سوف يتم انشاءه في الزمان القادم.

ويكون من متطلبات المأوى ان تقدم العمارة للانســـان في هذا العالم، الحماية والامان الطبيعي والاجتماعي والوجودي، فتكون العمارة مأوى للانســـان من هذا العالم، ومأوى له في العالم،ومأواه الى العالم.

وان ماينتج عن ذلك، ان العمارة بوصفها مأوى، تكون مبنى، هو الذي يتوفر على متطلبات الايواء. فيكون المبنى عمارة بقدر ما يكون مبنى يتوفر على طبيعته وخصـــائصـــه من متانة وقوة انشـــائية، واســـتقرار وثبات في المكان ودوام في الزمان، وان يكون ذلك مبنى قادرا على الايفاء بوظيفة المأوى.

ان العمارة التي هي المبنى الذي يكون مأوى، تكون جميلة من خلال ان تحقق ماهيتها بوصـــفها المبنى / المأوى.

فالشـــئ يكون جميلا بعد ان يكون ماهو، فيكون جميلا بوصـــفه ماهو، ويكون جميلا بقدر مايكون ماهو.

وتكون العمارة بعد ذلك اجمل واكثر جمالا، بقدر ماتزيد من قدرتها على ان تكون ماهي.

وفي ذلك بعدا جماليا ماهويا ينتج عن التحقق الواقعي والممكن لما هو ثابت الوجود واســـاســـي من مقومات ماهية العمارة،

غير ان ارتباط الماهية بالوجود يكشـف عن جمال اخر متحول يتحصـل من البناء الشـكلي للابنية المختلفة، واثارها الحسـية والتعبيرية. وهو جمال ليس اقل اهمية، كما انه لايمكن ان يتم فصـله عن الجمال الماهوي، بواقع صعوبة الفصل بين الماهية والوجود، وبواقع ان الشكل يكون جميلا بوصفه تجليا للماهية.

ان ماهيـة العمـارة لاتكتمل في محض وجودها المعرفي او المفهومي، بل تســـتلزم دوام الاتصال مع وجودها الموضوعي، كما يتمثل في التحقق الواقعي لها في الابنية.

ويكشف هذا الوجود الموضوعي عن حقيقة ان العمارة وهي تحدث وتقع في مبنى ما، فإنها تتعرض الى التأثر بكل عوامل انتماءه من مكان وزمان وانســـان، والتي هي عوامل تتدخل في بناء العمارة ذاتها،

حيث لايمكن للعمارة ان تكون الا في مكان تحدث فيه وتستثمره ايضا وتوظفه،

فالمكان وفق شـــروط بيئية معينة هو من متطلبات المأوى، كما ان لاعمارة تحدث في مبنى الا في زمان يؤوي توظيفها وممارسة الفعل الانساني فيها، ويؤوي تلقيها.

كما ان المبنى حيث يدوم في الزمان تدوم عمارته وتزداد ايضـــا، ويتدخل بذلك الزمان بعدا مكونا في العمارة وليس مستوعبا لها فقط.

كما ان العمارة لا تكون إلا من قبل انسـان وإلا لاجل انسـان وإلا وفق متطلبات الانسـان. فهو الذي يقترحها ويوظفها ويمنحها عوامل الوجود والمعنى والدلالة.

ان العمارة لم تكن فكرة من خلق الانســان، ولم يكن المأوى فكرة من خلق الانســان بل كانا افكارا وظواهر طبيعية، حيث يمتلك الحيوان ايضـا مأوى وبيت وعمارة، غير ان الانسـان الذي لم يخلق العمارة، صـنعها وانشـأها في الصـورة التي يعتقد انها تلائمه وتفي باحتياجاته، فكانت عمارة للانســـان تقدم صـــورة واقعية لمفهوم تجريدي ولمعرفة طبيعية وكونية. وقد كانت العمارة وفق الصورة التي انتجها لها الانسان هي مدار بحثنا واهتمامنا بقصد بلوغ ماهيتها.

ولأن الانســـان يتصـــف بالتغير والتحول في رغباته واحتياجاته وفي افكاره، كما تتصـــف بالتغير عوامل الانتماء الاخرى من مكان وزمان، فإن ذلك يجعل هذه العوامل تســـهم في تأســـيس البعد المتحول في ماهية العمارة،

وهي تحضـــر في الابنية المختلفة، ويظهر تأثير وحضـــور عوامل الانتماء في الاشـــكال المعمارية للابنية، حيث يحفل الشـكل بظهور صـورة عينية ومدركة ومحسـوسـة لكل مايتدخل ويؤثر في بناء العمارة، ويكون الشـكل متضـمنا ذلك، وهوما يظهر للمتلقي من الوجود الموضـوعي للعمارة، كما يختزن ويخفي ايضـا مايمكن ان يبلغه الادراك باسـلوب ما او باخر. حيث ان المعرفة الانسـانية لا تنشـغل فقط في تلقي وتفسـير الاشـكال، بل وتقترح ايضـا كيف يمكن ان تكون هذه الاشـكال، لكي يمكن للمبنى ان يفي بالتزاماته على مستوى التعبير الحسي، بوصفه عملا معماريا.

ولذلك فان الشـكل الذي يقدم صـورة حسـية عن الماهية يختزن مقومات بعدها المفهومي من خلال دواعي ومقاصـــد تشـــكله، وكذلك من خلال قدرته على اثارة وتوليد المعنى والدلالة حوله لدى المتلقي.

ان شـكل العمارة وعلى الرغم من الانشـغال المحموم بتشـكيله، فهو في وضـع التزام نحو ماهية العمارة بابعادها المختلفة، الوظيفية والانشائية والجمالية والانتمائية.

ولايكون الشـكل في العمارة ممثلا لحضـور ما في المبنى مكتفيا بذاته، او لحضـور مقصـود لذاته، فالعمارة ليست شيئا يتعرض الى التلقي بوصفه شكلا، كما يحدث لمنحوتة او لوحة فنية.

وان الشكل في العمارة هو ليس شكلا في العمارة، بل هو شكل لها،

حيث ان المبنى يكون عمارة ويمتلك شكلا بصفته عملا معماريا.

وان الشكل الذي يبني مكوناته على وفق نظام معين في تكوين كلي متماسك ومكتمل ودال، لا ينجز مهمته تلك في حرية وتجرد، بل وفق التزامه بمعايير ومتطلبات يستدعيها تحقق الماهية. وان هذا الالتزام وحده الذي يمكن أن يمنح الشكل قيمة وقبولا في فن وظيفي وواقعي مثل العمارة. فلا يعود الشكل قادرا على تبرير ذاته، دون أن يجد له علاقة مع الماهية، او يكشف عن التزام نحوها

كما ان الشكل الذي يمتلك وجوداً موضوعياً ما، يتعرض في التلقي الى فعل ادراك يتولد عنه صور معرفية مختلفة. ويكون في منال الادراك وهو يقرا الشكل ويكشف عن تضمناته، أن يجمع معا العلة الشكلية للعمارة مع عللها المادية والغائية والفاعلة، وهي تتدخل في بناء الشكل.

تنجز حالات التلقي ومحاولات المعرفة صوراً للشكل متعددة، ليست اقل اهمية في التعريف بالشكل من ادراكه في وجوده الموضوعي الواحد. اذ ان الشكل يدرك بطريقة فردية ومختلفة من متلقي لاخرومن آن لآخر... وان المهم في الشكل هو ليس كونه شكلا لجدار مستطيل احمر بنافذة مربعة خضراء، بل المهم في الامرهو شكل هذا الجدار في الادراك. بأن ندرك الجدار الصلد الاحمر اولا او النافذة المربعة الخضراء ؟ وان نهتم بالشكلين الهندسيين المستطيل والمربع او باللونين الاحمر والاخضر ؟ وان نكتفي بشكل النافذة المربع او ان نذهب الى امنية ان تكون النافذة بشكل مستطيل او مثلث او دائري ؟ وهل نفرح بالشكل المربع او ان نشعر بجموده ؟... كل هذه وسواها وبشكل لانهائي هي مكونات واثار واحتمالات للشكل في التلقي، يمكن ان تشغلنا منفردة وقد تحضرفي التلقي مجتمعة، غير انها تقدم السبب في ان ماندركه من الشكل هو صورة فردية للشكل، تبنى وفق قراءة لمكوناته مختلفة ومميزة قراءة عن اخرى

وهو ما يجعل الماهية وبفعل الادراك متعددة واكثرمن محض صورتها التي تحضر في إلشكل الموضوعي الواحد

ويتوضح بذلك ان الماهية في جزءها المدرك والمحسوس والعيني كما يظهر في الشكل. هي ماهية ناتجة عن المعرفة، وهي متحولة ونسبية بفعل المعرفة ذاتها.

ان اثنين من المتلقين قد يشاهدا نافذة مربعة في جدار، ويتفقا على انها موجودة وانها مربعة فعلا، ولكن ادراك الاشياء لاينتهي في حدود اقرار ماهو وجودها، بل انما يكون الادراك متصلاً بما تعنيه تلك الاشياء للمتلقي، فالشكل يدرك محملا بالمعنى، وعندما يتدخل ما يعنيه الشئ او الشكل للمتلقي، فإن ذلك منفذ للاختلاف والتعدد في ماندرك وفي مايعنيه لنا ماندرك.

وان الابنية التي تمتلك قدرة ان تكون في وجودها موضوعا للمعنى والدلالة، فإنها ايضاً موضع تلقي ما نمنحها وما نعتقده فيها من المعنى والدلالة.

ولذلك فان ماهية الاشـياء في علاقة بسـيطة هي نتاج الشـكل الذي تمتلكه، فضـلاً عن المفهوم الذي نتملكه ونقوم بتوليده عنه .

وهي علاقة تديم التوصـــلات النظرية الاســـاســـية ، في ان ماهية العمارة نتاج وجود العمارة الموضوعي فضلاً عن وجودها المعرفي.

وان ماهية العمارة ســتبقى قائمة ليس في الشــكل المعماري وحده، الذي يمثل ما يدرك من وجود العمارة الموضـوعي، بل وايضـاً فى ما قبل الشـكل من مبررات ومقاصـد ومهمات وجوده، وفي ما بعد الشكل من الدلالة والمعنى الناتجة عن تلقيه وتفسيره ومعرفته.

وفي ديمومة من تغير العمارة في تغير الابنية واشـــكالها، وفي تغير العمارة بتغير المفاهيم عنها،فإن احد شكلي وجود العمارة (الموضوعي) يؤثر في شكل وجودها الاخر (المعرفي) ويولده، كما يتولد هو ايضا متأثرا به.

ويواصـل الانسـان مهمته في انتاج العمارة وفي التعرف عليها ومعرفتها، ويديم البحث عن ماهيتها، غير أنه يتوصل الى أن ماهية العمارة ليست في ما تكونه العمارة وحسب، لكي يذهب اليها ويبحث فيها عن ماهيتها، بل أن الماهية ايضـــأ في ما يعرفه عن العمارة وفي ما يعرفه منها، وفي ما يعتقده حين معرفتها.. فتكون ماهية العمارة مفهوما ينجزه الانســـان عن العمارة لا ينقطع في كل حال عن وجودها الموضوعي.

ان الانســـان في دوام انتاجه للعمارة وانشـــاءها، من خلال توظيف قدراته وخبراته الفنية والحرفية والتكنولوجية، أنما يقدم اشكالاً من الابنية تروي حكاية العمارة وتقولها على الدوام، فتكون تلك الأشـكال في صـورة عن العمارة لا تحيد عن أن تكون عمارة في كل حال، على الرغم من كل تنوعاتها واختلافاتها الشكلية والاسلوبية.

وفضـلاً عن ما ينتجه الانسـان من واقع شـيئي للعمارة يسـكنه ويأوي اليه، فأنه يديم انتاج العمارة وبناء ماهيتها في صـورة اخرى لها تكون تجريدية ومفهومية ومعرفية، تسـاعد الانســان في كيف يأوي الى الابنية، حيث يســكنها من خلال ما يعرفه منها وما يعرفه عنها، وفي ذلك مســـتوى من السكن يتوفر على المتعة والتيقن الذي ينتج عن ادراك الانسان لطبيعة الاشياء التي يتعامل معها.

اذ أن الانسـان لا يأوي الى الابنية بدافع الغريزة او الحاجة الى المأوى وحسـب، والذي قد يكون هو الذي يقود الطائر الى عشـــه، بل أن الانســـان يأوي الى الابنية التي يدرك ويفهم ما تعني وما تمثل بالنسبة له من خلال مفهومه عنها.

في امتلاك الانسان رصيدا معرفياً حول العمارة، فأنه يتحصل على ايواء بوفرة من المعرفة والحس والمتعة، يفي بحاجات البعد النفسي والروحي للانسان. حيث أن الانسان الذي يتعبأ جسده ويفيض بالنفس والروح، يبحث في المبنى /الجسد عن ما هو موضوعا للنفس وما هو موضوعا للروح. وتلك هي مهمة كيفية أن يكون المبنى، بأن يكون اكثرمن محض أن يكون.

واذا رغبنا ان نقدم مفهوما ملخصا لظاهرة العمارة ولماهيتها نقول بان (العمارة هي مبنى يتوفر على متطلبات ايواء الانسان، يكون عمارة بقدر مايكون مبنى وبقدر مايكون ماوى. وينجز المبنى بذلك قدرا من جماله الناتج عن حضور عوامل اساسية ومميزة وثابتة الوجود في ماهيته بوصفه عملاً معمارياً. ويمتلك هذا المبنى شكلاً يتأثر بعوامل انتماءه ووجوده الواقعي المتحولة، ويقدم رصيداً من الجمال الحسي واثاره التعبيرية، الناتجة عن تمثيل الشكل لعوامل ماهية العمارة الثابتة والمتحولة. ويقدم الشكل بذلك صورة حسية وعينية ومدركة لكل ما يمكن أن يؤثر في انتاج المبنى ويؤسس لماهيته. على الرغم من ذلك فأن ماهية العمارة، لا تكمن في محض الشكل وما يجسده حسياً من تكشف لعوامل بناءه، بل وتكمن الماهية ايضاً في ما يسبق الشكل من معايير ومتطلبات تؤدى الى أن يكون الشكل بهذا الشكل، كما تكمن ايضاً في ما ينتج عن الشكل من دلالة ومعنى، بتأثيرما يناله من قيمه اثر تلقيه من قبل الانسان).